

مهمة الإنسان ورسالته في هذا الكون

من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة^(١)

● الخطبة الأولى:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يجعل الله له نوراً فما له من نور. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابه، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرونا في زمرة، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أما بعد... فيا أيها الإخوة المسلمون:

لكل شيء في الوجود مهمة ورسالة ينبغي أن يؤديها... للجمام رسالة،

(١) تولى الأستاذ القرضاوي مهمة خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالدوحة منذ إنشائه، ما لم يكن مسافراً، كما يقوم تلفزيون قطر ببيت الخطبة على الهواء، فيسمعها المسلمون في قطر والبحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية وغيرها.

وللنبات رسالة، وللحيوان رسالة، وللإنسان رسالة.

ورسالة الإنسان: أن يعبد الله عز وجل^(١) ويعرفه حق المعرفة، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] ، ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِينَ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ، أي: أن الله خلق العالم العلوي بسماواته، وخلق العالم السفلي بأراضيه، لحكمة وغاية، هي أن يعرف الناس

٠٣٦٠

الإنسان هو المقصود من خلق السموات والأرض، هذا الإنسان على صغر حجمه، وعلى ضآلة جسمه، وعلى قصر عمره، الإنسان بالنسبة للكون شيء صغير، نحن نعيش في جزء من قارة، والقارة جزء من هذه الكرة المعلقة، التي نسميها الأرض، والأرض جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء صغير صغير من المجرة التي نعيش فيها والتي يطلقون عليها: سكة التبانة، لأن النجوم تتناثر فيها، كما يتناثر التبن في سكة من يحملون التبن، لا عدد لها ولا حصر لها، بالملايين، وأي نجم فيها أضعاف هذه الأرض بمئات وآلاف المرات وربما بالملايين.

هذه إحدى المجرات التي في هذا الكون، والتي مجموعتنا الشمسية جزء منها، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات التي يقوم عليها هذا الكون.

الكون كون كبير فسيح جداً، لا يعلم حدوده إلا الله، وهو يمتد ويتسع كما يقول العلم الآن، وكما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] .

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول إذا أعتدل من ركوعه: «اللهم ربنا

(١) انظر فصل (العبادة مهمة الإنسان الأولى في الوجود) من كتاب (العبادة في الإسلام) للأستاذ القرضاوي.

لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(١) أي: بعد السموات والأرض، ولهذا يسأل بعض الناس عن قوله تعالى: ﴿سَاقِفُوا إِلَىٰ مَعْفُورٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفُورٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، إذا كان عرضها عرض السموات والأرض، فماذا يكون طولها؟! والعرض دائماً أقل من الطول، إنها شيء لا يعلمه إلا الله.

إذن هناك عالم فوق السموات والأرض، والسموات حتى الآن لا نعلم حقيقتها ما هي؟ ما هي السموات؟ إن الله تعالى ذكر لنا: أن السماء الدنيا زينها بمصابيح... زينها بالكواكب والنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [الصفات: ٦] أي: النجوم، ومعنى هذا: أن كل ما نراه ونعرفه من النجوم هو في السماء الدنيا التي نراها، والتي يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين، أو بعد ملايين السنين، بل يزعم العلماء اليوم: أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد، رغم ملايين السنين فيما يقولون. نحن لا نعرف إلا هذه السماء الدنيا، فماذا يكون وراءها؟! وأين سائر السموات السبع؟.

إذن الإنسان من حيث هذا الكون، من حيث حجمه، مخلوق ضئيل، ومن حيث الزمان مخلوق ضئيل، كم يعيش الإنسان؟ جاء في الحديث: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»^(٢)، وهب أنه بلغ المائة، أو جاوز المائة إلى مائة

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه أبو داود، والنسائي، وتتمته: «... أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» (الأذكار للنووي بتحقيق محيي الدين مستو، حديث ١١٥).

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه أبو يعلى عن أنس، وحسنه السيوطي في (الجامع الصغير)، وتمة الحديث: «وأقلهم من يجوز ذلك».

وخمسين، أو مائتين، أو عمر ما عمّر نوح، ولم نعرف في التاريخ أحداً عمّر ما عمّر نوح، الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون، ولا ندري كم عاش قبل البعثة، الغالب أنها أربعون سنة، ولا كم عاش بعد الطوفان، على كل حال عمّر أكثر من ألف سنة، ولكن ما النتيجة؟ النتيجة هي: الموت.

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواء قصيره والطويل

عند الموت يتلاشى هذا كله، ويصبح العمر كأنه لحظات، ويخيل للإنسان أنه لو عاش برهة ولو قصرت، يعوض فيها ما فات، ويتدارك ما فرط فيه، وهيئات هيئات: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]

الإنسان من حيث عمره شيء ضئيل ضئيل جداً، بالنسبة للأزل من قبله، وللأبد من بعده، ما قيمة هذا الإنسان إذن؟ ما قيمته؟ ليس له قيمة كبيرة من ناحية المكان، ولا من ناحية الزمان، ومن ناحية هذا الجسم لا قيمة له، هو جزء من التراب، لو حللته لوجدته مجموعة من المعادن والعناصر، بعضها من الحديد، وبعضها من الفوسفور، وبعضها من كذا، وبعضها من كذا، تشتري ببضع ريالات، وتتحلل كلها بعد الموت، وتستحيل إلى تراب.

ليس للإنسان قيمة إذن من هذه الناحية المادية.

قيمة الإنسان في هذا الشيء الذي أودعه الله تعالى فيه، ليست في التراب، ولا في الطين، ولا في الصلصال، ولا في الحمأ المسنون، إنما في هذا السر، في هذه اللطيفة الربانية، في هذه الجوهرة الروحانية، في هذا الشيء الذي نفخه الله فيه، والذي استوجب به أن تسجد له الملائكة تحية وتكريماً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ (١) فَإِذَا

(١) وفي آية أخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْتُورٍ ﴿٧٨﴾ [الحجر: ٢٨].

سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُمْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٦﴾ [ص: ٧١ - ٧٢] لماذا يسجدون؟
تكريماً لهذا النفخة من روح الله .

هذا هو الذي جعل للإنسان مكانة أي مكانة، وإلا لو كان الأمر يدور
حول الطين والحما المسنون، ما ساوى الإنسان شيئاً.

بهذه النفخة الروحانية كان الإنسان إنساناً، استحق أن يكون خليفة الله في
الأرض، وأن تشرئب أعناق الملائكة لتتبوأ منصبه ومنزلته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

يبدو أنهم استنتجوا ذلك من طبيعة الطين والحما المسنون التي رأوها في
أول الأمر، ولم يدركوا السر الآخر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فقالوا:
إن مثل هذا المخلوق الطيني، لا بد أن يغلب عليه الطين، وينزع إلى الأرض،
ويخلد إلى التراب ويقع منه الفساد وسفك الدماء: ﴿... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾ [البقرة: ٣٠] فكان الجواب الإلهي، أن قال الله لهم: ﴿... إِنِّي
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وعقد امتحاناً لآدم وللملائكة، ظهر فيه فضل
هذا المخلوق، والسر كله يرجع إلى: ﴿... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾ [الحجر: ٢٩] .

هذا هو الإنسان، حقيقة الإنسان ليس هذا الغلاف، ليس هذا الجسم
المكون من الأجهزة والخلايا والدم واللحم والعظام والأعصاب، لو كان الأمر
أمر جسم، لكان الثور أعظم من الإنسان، لكان الفيل أعظم من الإنسان، فما
أضخمه، وما أعظم من جسمانه! ولكن سر الإنسان في هذا (الروح الإلهي)
الذي يسري بين جنبيه! هذا هو أنت أيها الإنسان، بهذا صرت عظيماً في
ملكوت السماء؟ ينسبون إلى الإمام علي رضي الله عنه قوله:

دواؤك فيك وما تشعر دواؤك منك وما تبصر!

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!

العالم الأكبر في هذا الإنسان، هذا المخلوق العجيب، ومن هنا كانت قيمة
الإنسان .

ومن هنا سخر الله له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة، الكون كله في خدمة الإنسان، مسخر لمنفعته، الشمس تضيء له، والنجوم تهديه، والبحار والأنهار، وكل ما في هذا الكون لخدمته، وجعل الله له في الأرض ذلولاً ليمشي في مناكبها ويأكل من رزقه، سخر له البحر ليأكل منه لحماً طرياً، وليجري الفلك فيه مواخر وليستغي من فضله، ولعله يشكر الله عزوجل^(١)، سخر له المخلوقات العظيمة فوقه وتحتة، لتكون في خدمته، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَمَا تَسْكُرُونَ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلِيلٌ مُسْكِرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢] .

انظروا إلى كلمة (لكم) وتكريرها في هذه الآيات خمس مرات، الكون كله مسخر لمصلحة هذا الإنسان، ولخدمة هذا الإنسان.

ولكن الإنسان نفسه لمن سخر؟ ومن يخدم؟ إنه قد أعدّ لخدمة الرحمن، كل ما في الكون خلق للإنسان، أما الإنسان نفسه فخلق للرحمن!

إذا نظرت إلى مراتب الكائنات في هذا الكون، وجدت كل كائن يخدم ما هو أعلى منه مرتبة، الجماد يخدم النبات، والنبات مع الجماد يخدم الحيوان، والحيوان مع النبات والجماد يخدم للإنسان.

الأرض تخرج النبات، والماء والمطر والشمس وهذه المخلوقات تعمل لإحياء النبات، وإمداده بالغذاء، حتى ينمو ويترعرع، ويزهر ويشمر، وهذا النبات يأتي الحيوان فيأكله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣] .

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِلَّهِ تَسْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] .

الحيوان الذي خدمه النبات يخدم الإنسان وهو مسخر للإنسان، هذه الأنعام تخدمك وهي صحيحة، وتأكلها وهي ذبيحة.

أما الإنسان ذاته فمن يخدم؟ من ذا الذي يخدمه الإنسان؟ ليس هناك من هو أعلى من الإنسان من المخلوقات، إنما يخدم الإنسان الله عز وجل.

ولهذا كانت الوثنية عكساً للحقائق، وقلباً للأمور، حينما جعلت الإنسان يذل ويخضع لما هو أدنى منه، يعبد الطبيعة، يعبد الأبقار، يعبد الأنهار، يعبد الأشجار، يعبد الكلاب، يعبد الشمس أو القمر، يعبد الجمادات أو النباتات، أو الحيوانات أو الأفلاك، وكلها دون الإنسان، وكلها في خدمة الإنسان.

الإنسان خلق لله، ليعرفه ويعبده: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] - مثلهن: في العدد، أو مثلهن: في التكوين، أو مثلهن في روعة الخلق وإبداعه - ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ، لتعرفوا الله عز وجل بأسمائه الحسنی، وصفاته العلی، أنه القادر على كل شيء، والعالم المحيط بكل شيء.

ليس معنى معرفة الله أن نعرف حقيقة ذاته، لا، هذا أمر تنقطع دونه الأعناق، إننا لم نعرف حقيقة أنفسنا، فكيف نعرف حقيقة خالقنا؟! إن بعض (البساطت) في هذا الكون عجزنا عن إدراك كنهها، إن الإنسان رغم تقدمه العلمي الهائل حتى أنه غزا الفضاء، ويحاول أن يصل إلى كواكب بعيدة، عجز عن معرفة حقيقة نفسه، حتى ألف رجل من أقطاب العلم كتاباً شهيراً سماه: (الإنسان ذلك المجهول)^(١)، ألفه الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على (جائزة

(١) وقد اقتبس منه الشهيد سيد قطب - عليه رحمة الله - مقتطفات ضمنها كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) فصل: الإنسان ذلك المجهول، أراد بذلك أن يؤكد نظرية الإسلام في شأن الإنسان، والتي تقرر تسليطه على عالم المادة، وتسخير له، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة، وفي الوقت ذاته تقرر جهله المطبق بالإنسان، وإعفائه تبعاً لهذا من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه، وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض، ثم إلزامه باتباع منهج الله هذا.

نوبل) في العلوم^(١)، يقول: إننا عرفنا الكثير عن الجمادات، وعن الأشياء من حولنا، ولكننا نجهل الكثير عن أنفسنا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. لم نعرف إلا القليل، ولهذا إذا قلنا: خلق الله الكون لنعرفه سبحانه، فليس معنى أن نعرف كنه ذاته، لا.

نحن نتفكر في خلق الله... في آلاء الله، ولكننا لا نتفكر في ذات الله، فهذا باب مغلق، نحن نؤمن بالغيب، ولا نبدد طاقتنا العقلية فيما لا سبيل للوصول إليه، أولى بنا أن نبحث في الكون، ونكتشف قوانينه، ونعرف سننه، ونسخره - كما أراد الله - لخدمتنا، بدل أن نضيع أنفسنا فيما لا طائل تحته.

لقد انحرف بعض المسلمين في بعض العصور، وبحثوا في أمور إلهية لا معنى لها: الذات والصفات وعلاقة الذات بالصفات، وقامت معارك كلامية وجدلية، كان معظمها منتحلاً ولا معنى له، وكان أكثرها من تأثير الفلسفات والنحل والملل الأخرى، ولو وقفوا عند القرآن ما جرهم إلى هذا، لو عرفوا أن عليهم أن يقفوا عند هذا الباب، ويقولوا ما قال الراسخون في العلم: ﴿إِنَّمَا يَهْتَكِرُ كَيْدًا مَن عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] لكان هذا أولى وأجدر وأبعد عن هذه المتاهات التي دخلوا فيها، دون أن يظفروا منها بشمرة، حتى قال قائلهم:

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلانه يتغمغم
 ما للتراب وللعلوم؟ وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم!

خلقنا الله تعالى لنعرفه، وإنما نعرفه بآثاره في الأنفس والآفاق: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [٢٥] ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفِ

(١) عام ١٩١٢م.

يُرَبِّكَ أَنْتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٦﴾ [فصلت: ٥٣] العلم اليوم يساعدنا على بيان آثار الله تعالى في هذا الكون، وكيف نظم التنظيم الدقيق، وأحكم الأحكام البالغ، الذي يدل على عظمة الصانع، وعلى حكمة المدبر، فلا تستطيع إلا أن تقول: سبحان الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [النمل: ٨٨] هذا ما يلحظه كل من ينظر في هذا الكون، وما أحسن ما قال أبو العتاهية قديماً:

ألا إننا كلنا بئد وأي بنى آدم خالداً؟
وبدهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكه وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد!

إنه الله، تراه في كل شيء، تراه بعين قلبك، بعين عقلك، ولا بعين بصرك، فأبصارنا أكل وأقل من أن تراه في هذه الدنيا، وإنما تراه هناك في الآخرة، حيث الكافرون عن ربهم محجوبون، وحيث المؤمنون على الأرائك ينظرون، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] ، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] . [أي المشركين].

خلقنا الله تعالى لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه حق العبادة، عرفنا أنفسنا فعرفنا ربنا، عرفنا مخلوقات الله فعرفنا خالقها، فأديننا له حقه، عبدنا له أنفسنا، لم نعبدها لأحد غيره، ولا لشيء غيره، فما يستحق شيء في الأرض ولا في السماء، أن نحني له ظهورنا راکعين، أو نعفر له جباهنا ساجدين، لا ركوع إلا لله، ولا سجود إلا لله، ولا ذل إلا لله، ولا خضوع إلا لله، ولا رجاء إلا في الله، ولا خوف إلا من الله، هذه هي العبودية، أن نعبد الله: ﴿... إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]

(١) يشير إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها، وأعين ولكنهم لا يبصرون بها، وأذان ولكنهم لا يسمعون بها؛ لأنه إذا لم يفقه بقلبه مهمته التي خلق لها، ولم يعرف الخالق الذي أوجده، فإن قلبه لم يعد قلباً، أصبح لا معنى له، وكذلك إذا لم ير آثار الله في الكون، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان نظره ستة على ستة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ، ولا يسمع صوت الحق، فهو أصم، كما قال الله تعالى في صنف من الناس: ﴿هُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [البقرة: ١٨] ، خربوا الآلات والأجهزة الإلهية، فانتهوا إلى أنهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

الإنسان يمكن أن يرتقي فيكون كالملائكة أو أفضل، وربما يكون أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة لم تؤت ما أوتي من الغرائز والشهوات، ولم يسلط عليها ما سلط على الإنسان من قواطع الطريق من الداخل ومن الخارج، فإذا تغلب الإنسان على هذه العوائق والقواطع وارتقى أصبح أفضل من الملائكة، وأصبح خير البرية على الإطلاق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ [البينة: ٧] .

وكما أن في الإنسان استعداداً ليرتقي ويرتقى، عنده استعداد لأن ينحدر وينحدر، ويهبط ويهبط، حتى يكون كالحيوان الأعجم، بل أضل من الحيوان سبيلاً: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لماذا كانوا أضل؛ لأن الأنعام لم تأت ما أوتي الإنسان، لم تؤت العقل الذي يفكر، ولا الإرادة التي تحرك أو ترجع، ولم تؤت هذه المواهب الروحية والعقلية التي أودعها الإنسان، الحيوان ليس فيه سر: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] فالحيوان معذور.

ومن ناحية أخرى فإن الأنعام تؤدي مهمتها... تقوم بدورها المطلوب

(١) البقرة: ١٨، وفي آية أخرى: ﴿هُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

منها في الحياة، هل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب؟ أو بعيراً امتنع أن يركب؟ إنها تقوم بوظيفتها في الحرث والسقي، وحمل الأثقال إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، تركيبها وزينة ولكن الإنسان إذا لم يعرف الله، ولم يقيم لعبادته وخلافته في الأرض، فإنه لم يؤد مهمته... لم يؤد رسالته، ولذلك كان أضل من الأنعام سبيلاً.

ومن هنا ماذا تقول في هؤلاء الناس الذين يعيشون ويموتون ولم يعرفوا الله؟! أولئك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله عز وجل، ما هم هؤلاء؟ هؤلاء كفار، ما قيمة هؤلاء؟ هذا التراب الذي يأكل من التراب، ويمشي على التراب، وينتهي إلى التراب، هذا الطين المتعالي المتعجرف، ما قيمته وما منزلته حتى ييحد وجود الله؟.

وكذلك أولئك الذين يؤمنون بوجود الله، ولكنهم لا يقومون بحقه، حتى من بين أبناء المسلمين، هذا الذين يتسمى بمحمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن، بما حمد وعبد من الأسماء، بأسماء الأنبياء وأسماء الصحابة، هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرائي المسلمين، ولا تراهم لله راكعين ولا ساجدين، الذين يعبّون من الشهوات، الذين يركضون وراء اللذات، الذين: ﴿... أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾^(١) [مريم: ٥٩]، ما رسالة هؤلاء؟ ما رسالتك أيها الإنسان؟ أخلقت لمجرد أن تأكل وتشرب؟! هكذا تصنع الأنعام، ماذا زدت على البقرة في بيتك أو الناقة أو الجمل أو الحمار؟ ما قيمتك أيها الإنسان إذا لم تكن لك مهمة أعظم وأرقى؟ ما قيمتك إذا لم تعرف الله ولم تعبد الله؟.

إن معرفة الله تعالى وعبادته هي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، فعلى الإنسان أن يعرف غايته، أما إذا عاش لا يعرف لماذا يعيش؟ وما هي غايته؟ وما هي رسالته؟ فما هو بإنسان!.

(١) وأولها: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَغْدِهِمْ خَلْفٌ...﴾.

بعض الناس يعيشون موجوداً كمفقود، حياً كميته، حاضراً كغائب، هذا ليس بإنسان، لا يحسب من الأحياء، ولا يحسب من بني آدم.

وآخرون حددوا غايتهم في المتع... في الشهوات، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم، وفي أمثالهم من الكفرة الفجرة: ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [عمد: ١٢].

هناك أناس يعيشون بلا إحساس كما تعيش الجمادات، وأناس يعيشون بغرائزهم ولغرائزهم كما تعيش الأنعام، تجري وراء الشهوات، وأناس يعيشون كما تعيش الشياطين، مهمتها الكيد والإيذاء لخلق الله، والإفساد في الأرض.

أما الإنسان... الإنسان الحق، أعني الإنسان المؤمن، فليس هناك إنسان إلا المؤمن، ما عدا المؤمن فليس بإنسان، وإن حسب من الناس، وإن سجلته التعدادات والإحصاءات فيما يسجل من أعداد الناس، المسألة ليست بالكم... ليست بالعدد، الإنسان الحقيقي هو الإنسان المؤمن، الذي يعرف الله تعالى، ويقوم بحقه، ويعبده في أرضه، ويقوم أمر دينه، هذا هو الإنسان، وهو الذي جاء الإسلام ليصنعه... ليربيه... ليكون، يكون شخصيته المتكاملة، وهو الذي ربه النبي ﷺ في دار الأرقم بمكة، وفي مسجده بالمدينة، ليكون صالحاً في نفسه، مصلحاً لغيره، من ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

هذا الإنسان هو الذي انطلق بالقرآن، وانطلق بالإسلام، إلى أقاصي الدنيا شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وأقام فيها حضارة العلم والإيمان، ودولة العدل والإحسان، هذا هو الإنسان... إنسان الإسلام.

فيا أيها المسلم... يا أيها الإنسان: اعرف غايتك، واعرف رسالتك، وجند نفسك لها، وعش لهذه الغاية، عسى الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لتكون أناسي حقاً، نعرف حقنا، ونعرف واجبنا، ونعرف مهمتنا في أرض الله، اللهم وفقنا لما تحب وترضى، اللهم آمين.

أقول قولي هذا واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور
الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

الحمد لله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
يسبح له ما في السموات وما في الأرض، له الملك وله الحمد، وهو على كل
شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير،
صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وصحبه الذين: ﴿آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ،
ورضى الله عنم دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم
يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة^(١).

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا ديانا التي فيها
معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا،
واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي

(١) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة المتفق عليه. أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال:
«فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار بيده
يقللها. والمراد بالساعة هنا (معناه اللغوي) وهو: برهة من الزمن، ولهذا قال: وأشار
بيده يقللها، ليسارة وقتها، وأما تعيين الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة
واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً، وأفاض الإمام ابن القيم في ذكر أقوالهم ورجح
منها قولين، أحدهما: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، انظر: (زاد المعاد: ١/
٣٨٨ - ٣٩٧) بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، وانظر أيضاً (المتقى
من كتاب الترغيب والترهيب للشيخ القرضاوي: ١/٢٤١ - ٢٤٣).

الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، واعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين في أريتريا، وانصر إخواننا المجاهدين في الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر، اللهم أيدهم بملاً من جنك، وأمدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلاهم في كنفك الذي لا يضام، اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين، اللهم عليك بالصليبين المستعمرين، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين، اللهم رد عن المسلمين كيدهم، وقل حدهم، وأذهب عن أرضك - سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
